

اجتهادات هفوة الإمام محمد عبده

يعرف كل مُطلع على تاريخنا الحديث فضل الإمام محمد عبده فى فتح باب كان مغلقاً أمام العمل من أجل إصلاح مازال مرجوفاً فى الخطاب الدينى، وتصحيح ما برح منتظراً لكل فهم خاطئ للإسلام.

ولذا، يحظى الإمام عبده، الذى حلت الذكرى السبعون بعد المائة لولادته، بتقدير شديد. ولكن جل من لا يُخطئ. وفى القول المأثور أن لكل عالم هفوة. وكانت هفوة هذا العالم المُجدد صغيرة فى وقتها، ولكن أثرها ازداد بعد ذلك على نحو يصعب تصور أنه رغب فيه.

لم يقصد الإمام عبده دعم من يتخذون الهجوم ضد العلمانية الآن باباً خلفياً للدعوة إلى دولة دينية، أو لدعم جماعات تستغل الدين لتحقيق أهداف سياسية، عندما ترجم كتاب جمال الدين الأفغانى الرد على الدهريين عن الفارسية، وكتب مقدمته التى أثنى فيها عليه أشد الثناء.

والكتاب المذكور من نوع المقالات الطويلة التى يُطلق عليها رسائل، لأن كلاً منها يحمل رسالة. ورسالة هذا الكتاب هى الرد على ما تصور الأفغانى أنها نظريات طبيعية أو مادية سماها «النيشيزم». لكنه خلط فيها بين الفلسفة الإبيقورية اليونانية القديمة، وفلسفات حديثة مثل الاشتراكية (السوسياليست كما سماها) وغيرها مما لا يتعارض مع الأديان، إذ ركز نقده كله تقريباً على أفكار متواترة عن تلك الفلسفة.

وربما أراد الإمام عبده تكريم صديقه بُعيد رحيله. فقد أصدر ترجمة الرد على الدهريين خلال عمله مفتياً للديار، والذي عُين فيه عام 1899، أى بعد عامين على وفاة الأفغانى. ويُستدل على ذلك من غلاف الكتاب المترجم: (نقله من الفارسية إلى العربية صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية بمساعدة عارف أفندى أبى تراب (الأفغانى).

والمعتاد، فى مجال التكريم، أن يُشاد بالعمل المراد إظهار الوفاء لصاحبه، والتغاضى عن الخلاف معه. ولذا، حفلت مقدمة الإمام لهذا الكتاب بالإشادة، دون إشارة إلى أى خلاف حدث مع الأفغانى فى حياته، الأمر الذى أضفى نوعاً من الشرعية على موقف صار منطلقاً لهجوم متزايد بعد ذلك ضد العلمانية، التى غدت امتداداً للدهرية، بدعوى أنها تتعارض مع الإسلام.